ذكريات ذاكرة

مروة جمال الدين

ذكريات ذاكرة

مروة جمال الدين

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

عبد الرحمن حافظ

تدقيق لغوي :

سارة سرحان

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٤٥٤٤

I.S.B.N:٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-١١١-٣

ذكريات ذاكرة

"شروع في رواية"

مروة جمال الدين

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

"شروع في رواية"

طعنًا فينا.. فنحن مخلوقات تقتات الماضي.. وبشراهة

"نهمٌ مُفجع"!!

نقشًا على جدار الذكرى...

ولوجع الذكريات أهديناها..

إهداءات

إهداءٌ أوّل:

"إليه":

اقرأها جيدًا.. فقد تَجِدُكَ جانيًا بين الصفحات..

إهداء ثانٍ..

"إليها":

اقرأيها جيدًا.. حتى لا تكوني الضحية التالية..

إليَنا:

فنحن أشد ما نكون إلى إفراغ خزانة الماضي.. والذكريات...

(١)

"أنا... والذكرى الحائرة"

وأسوأ ما في الأمر.. أنه بالحيرة بدأ معي!!!!

لماذا الليلة؟!.. لا أدري..

لماذا أنتِ؟!.. لا أدري..

بل لماذا اخترتُ أن أكتُبَكِ بدلًا من أن أحكيني؟!

.... لا أدري..

ولكني الليلة لم أتّخذ قرارًا.. بل قرار تجاهلك أخذني...

دوّامة من الذكرى والذكريات.. سنوات من التفكير الذي لم ينتهِ.. مشاعر سجنتها بين أضلعي وأنا هارب منها.. لأني لم أقوَ على مواجهتي.. "بكِ"...

الليلة.. سأترك العنان لكل ما أخفيته عن كل من حـــولي.. وحولك.. ومن لا يعرفون...

"آه"...

لكأنَّ وجعي تحرَّكَ توًّا مستقلًا قطار الإحساس الذي ظـــل رابضًا عمرًا في ذكراتي...

"أشعر بألم في ذاكرتي"...

محمد العرادي

إنسان وأديب سعودي

هكذا فعلًا حالي...

"أنتِ" منبع الألم.. في ذاكرة "أنتِ" فيها مـــصبّي للراحـــة كذلك...!!!

ولكني لم أدرك يومًا ما أراه الآن بوضوح... ولم أتجرّأ قبلًا على طرق باب ذكرياتي.. إلى أن قرَّرَتْ ذاكرتي أن..

تَـــ ـــتَـــ ـــمَـــ ـــلْـــ ـــمَـــ ـــل...

فـــعندما تبدأ الذاكرة في التَمَلْمُلِ!!

يحدث أن يؤذيني بعضُ بُعْد.. وبعده أُفيق.. أو أن يـــسحبني هذيانٌ "ما" في مفترق الأحلام.. فأسمع ضجيجه بـــشيء مـــن السعادة الحزينة.. وأعود لأرضيَ بعدها مُحَمَّلًا بكـــل تلـــك الخوارق التي غيّرت لنا تاريخًا وهي تحدث.. وحدث أن حدثت

هي في غفلة منّا.. فغالبًا تلك الكبائر التي تقلب كل الحياة علينا وتُغيّر الاتجاهات إلى العكس فجأة.. تحدث فجأة كذلك..

لم أتكلّف عناء استدعائك إلى ذاكرتي القريبة.. لأنك أصلًا لم تُغادريها.. مخالفةَ في ذلك كل قواعد علم النفس والبشريات في أن ما يمرُّ عليه وقتٌ "ما" فإنه ينتقل إلى قاع الـذكريات.. وقد تطمره الأحداث الأحدث...

فالأمر معكِ كان منذ البداية مختلفًا.. حتى في طفوك على سطح العقل فجأة دون أن يحدث ما يستدعي عودتك.. ولو حتى كطيف!!

وبرغم اختلاف الأمر معكِ وأحاسيسي منذ البداية.. إلا أن حزنًا معينًا لم أستطع تغييره في نفسي منذ أن تحوّل الأمر معكِ إلى: ذكريات ذاكرة...

و"الذكرى في شرع الغجرية = الشجن..."

لم أفهمها حين قرأتُها للمرة الأولى.. إنما احترتُ في تلك الأنثى التي تسكنك وكتبتُها..

لم أتخيل أن أحداثًا خبّأناها في حنايا العقل لنستدعيها وقت حاجتنا للسعادة هي تلك التي تحدثتِ عنها وأسميتيها بالسعادة

الحزينة.. ووجع الذكريات.. والشجن الساكن ذكرى تكرهينها..

معك عرفتُ الأمر حقًا وفهمته.. أدركتُ كيف تكون الذكرى السعيدة.. هي كل الألم..

بل أكثر من ذلك.. تعلمتُ أن الذكرى والذكريات على أنواعها.. حزينة!!

لا ذكرى سعيدة هناك، ولا ذكريات تثير الفرح في أنفسنا.. كلها مجرد "مشرط" نفتح به مكان الجرح من جديد.. ولا نجد "خيطًا" كافيًا ولا حتى طبيب قادر على سد الفجوة التي حدثت.. فالأمر يصبح بمثابة "استعادة الاستحالة"..

استحالة تكرار ما حدث.. وأننا وقتها كنا نستطيع استبقاء اللحظة بأن نعيشها أكثر.. ولا نفكر فيما بعدها.. لمَ لم نستمتع بها وقتها؟!!

سؤال قاتل.. سيبرز لنا كالشبح ليرهبنا في كل مرة أردنا فيها سبر أغوار الذاكرة التي تسكننا.. "و هنا تطرح أولى بذور مرارة الذكرى والذكريات"..

فعلى بُعد ذكرى واحدة..

نكتشف أننا لا نملك منها شيئًا.. بل تملكنا هي تلك الذاكرة.. بل تحتوينا... فبعد أن ندقق النظر في ذاكرتنا وما

تحويه من ذكريات.. سنشعر أننا لسنا من تسكننا تلك الذاكرة.. بل ببضع إشارات منها نتحرك.. فبالله علينا.. أيُّنا يملك الآخر؟! والسطوة لمن؟!

ونقاوم وقع ماضٍ نرفض استرجاعه لئلا يجرحنا.. ونسترجعه بإرداتنا المسلوبة به لأننا به نعيش.. وبدونه ننقص الكثير.. ولا نفهم منّا إلا ألغازًا لن تؤدي بنا إلى أبعد من طلاسم ورموز تحتاج لماضيها لتُفَكّ.. أو حتى تكون قابلة للفهم حتى..

وتتقاذفنا فيها التناقضات.. ويُعْوِزُنا كل المنطق لفهم ما يحدث.. ولا نجده مهما بحثنا!!

كذكرياتي معكِ ربما.. حُبْلى بمختلف أنواع التناقضات.. حدّ أني أتخيل أنني أسكن مملكة منها في حضرتك..

فمملكة من التناقضات تسكن ذكرياتي معكِ!!!

كنت قد توقفت عن تذكُّرك منذ أمد بعيد.. لأنه في كل مرة كان الأمر ينطوي على مخاطرة ما.. إما انهياري.. أو تجدُّد انبهاري..

وفي نفس الجانب من عقلي الساكن ذكراكِ: "حينما يغلبني شوقي إليكِ.. أتّخذُ من ذكرياتي معكِ درعًا لي قبل انهياري"!!!

فجولة في أروقة ذكرياتي تُنعشني.. تجعلني أشعر بكل شيء من جديد..

لم أخشَ يومًا انهياري أمام أي شيء.. وتوقّف بي عمر الانبهار منذ زمن..

إنما معكِ وجدتُ أني أقبلتُ على حبكِ بكل قوتي.. وفجأة.. على أعتابكِ.. خشيت كل شيء.. وأصبح حتى صوت الهواء حين يحرّك بابًا مواربًا يرعبني ويتركني لِهَلَعي وكوابيسي التي ما جرؤت على اقتحام نومي ذات يوم..

منتهى الأمان يسكن ذاكرتي فيكِ.. ورعب في منتهاه أشعره حين يطرق عقلي مشهد واحد من معرفتي بكِ.. ولو للحظات!!

مملكة من التناقضات.. وجسر ممتد بين المملكة وذاكرتي.. تعبر عليه كل لحظة "لحظةٌ" من المخزون!!

أأكون جُننتُ حقًّا إن أفصحتُ عن أنه حتى مع دموعي الساخنات وقت استدعاء الذكرى على غير موعد معها.. أكون في قمة سعادتي لأنك هناك حاضرة.. ولو مجرد ذكرى؟!!

مهمة أحادية الاتجاه كنت فيها معكِ.. أن أتشرّبك حدّ الارتواء..

أو أن أطبع صورتك في نفسي إلى **أن يراني أحدهم فيتخيلني** صورة.. أو نسخة.. إنما منكِ...

وفي نفس الوقت كنت أخشى كثيرًا أن يلمح **أحد طيفكِ** في كلماتي.. فتلك خطيئة كبرى.. لا أرضاها **على نفسي** الشرقية..

أوَ أُتّهم في أنثى؟!

لم تكن تلك شيم الرجل الذي **نعرفه**..

أخفتُ يومها أن تكوني **أنتِ همي؟.. أم خفتُ أن يعرفوا** أني أنا المتَّهم بكِ... ليس **ظُلمًا؟!!**

كيف إذن سأحكي؟

أأفتح دفتري وأنزف **ألمًا؟**.. أم أُشرِع **الباب** لذاكرتي لتحكيكِ ظُلمًا؟.. **أم أُطلق** العنان لذكرياتي لترسُمكِ لي من جديد؟

أخشى أن أضع **حكايتك** موضع الشتم واللّعن والمهاترات.. لأن ما سأخبر **به الأوراق عنكِ قد لا** تراه أعين من سيقرأ نفس الأوراق.. لن **تتعامل معه العيون** بنفس النيّة التي خُطّت به.. فنحن عادة.. عندما نشرع في فتح صفحة بيضاء.. وسنّ قلم الذاكرة.. فإننا نؤرّخ **ظُلمًا**.. إن حكينا أرّخنا مظلومًا.. وإن نقلنا أرّخنا ظالمًا!!

وبالمقارنة - التي أتعبتني - لم أعرف أبدًا إن كانت الأسئلة في حضرة ذكرياتي معك أكثر.. أم ذكرياتك نفسها!!!

ولم أعرف أبدًا كذلك إن كان عذاب فقداني لك أكبر.. أم عدم رؤيتي لهذا الفقد مبكرًا هي التي تطغى!!

""يطلبون أحيانًا أن نؤرّخ لألمنا كما نؤرّخ لتاريخنا.. وكأننا كنّا نعرف أن الحاضر سيغدو تاريخ الغدّ.. من منّـــا فكّـــر في لحظة أن "غدًا" هذا سيصبح ماضيًا بعد "غدّ"!!!!""

فعن توثيق ألمي فيك.. سأحكي..

تأريخًا لخيبتي في حبك.. هذا هو حال ذكريات ذاكرتي..

لم أتخيّل يومًا أن تتحول القضية بيني وبيني بالنسبة لـــكِ إلى "ماضي".. أخبر عنه.. وقد كنتِ ذات أمـــسٍ قريـــب كـــل المستقبل.. وملء الحاضر الذي ما خِلتُهُ سينتهي يومًا..

فعلى ذكر الذكريات.. قد كنت لي أنت ذاكرة مـــستقلة.. خبأتُ فيك أجمل ما في الماضي.. واستودعتك حاضرًا تلألأ في حضورك.. ومستقبلًا خـــشيت ألا أكـــون حاضـــرًا وقـــت حضوره.. فاخترت شطب الحاضر..

وأنتِ فيه... ونسيتُ أني بدونك.. أصبح بلا ذاكرة..

فأنا مكّون من ذكرياتي معك.. وبضع محاولات للنسيان.. وعندما قررتُ أن أتحرر منك.. وجـــدتني حبيـــسًا لـــسجن السكوت والصمت والكلمات...

فكيف إذن سأربح حربًا لم أعرف أطرافها يومًا، و لم يكـــن لي فيها من هدف، والسلاح الوحيد الذي تعلمته في ســـنيني.. هو الصمت!!!

وتمخّض الصمتُ يومًا عن قرارٍ بفراقك طمعًا في المزيد من الاحتفاظ بكِ!!..

أأخبركِ أمرًا؟

للصمت في حكايتنا.. حكاية.. لكي أنهيهـــا.. علـــيَّ أن أحكيها..

خروجًا من عباءة الصمت الذي قررته يوم أن فارقتك..

أو في ثورة عليّ منْ ذاكرتي.. أو إمعانًا في تجـــريح نفـــسي حتى أعرف كيف آلمَتك.. "مازوشية مزخرفة بمن نحبهم تدفعنا دفعًا لتجريح أنفسنا حتى نخفف من إحساسنا بذنب قد فعلنـــاه حقًا.. إنما رغمًا عنا.. و لم نملك إلاّه بديلًا ذات ذلك اليوم!!"

أو ...

أو أي شيء لا أعرفه.. إنما فقط... تذكُّرتك.. وتـــذكرت أني يوم أن رحلت.. تركتني معكِ.. و لم أعد ثانيـــة أبـــدًا إليّ كاملًا..

يقولون إننا حين نغادر من نحب.. أو يرحلون عنـــا؛ فإننـــا نترك جزءًا منًا في أحضانهم.. لدرجة أنّا لو أردنا رؤيتنا كاملين ثانية، فإن علينا أولًا جمعنا – أشلاءً – من أحضانهم وأحضانهن

- هؤلاء الذين سكنّاهم وسكنوا إلينا ذات يوم.. حتى نتعرف علينا من جديد..

إنما كما كان كل شيء معك مختلفًا.. فأيضًا الضياع في حبك مختلف تمامًا...

فكل ما ضيعته في سنين عمري وأيامي وجدته بين راحتيكِ..

وجدتُ في عينيك عمرًا كان قد ولّى من أمامي يوم أن خانتني حبيباتي..

وجدتني فيكِ... ببساطة..

وللغرابة - لم أكن أبحث.. لا عنكِ.. ولا عنّي..

ألم أقُل لكِ أن الأمر كله مختلف تمامًا معكِ؟!!

فبعد أن كنتُ ملكًا للصمت.. حبك علمّني لغة أخرى.. وبعدي عنكِ.. علّمني الكلام..

أتُراكِ لو كنتِ موجودة كنتِ سامحتيني على صمتي أولًا.. وكلامي في الثاني؟!!

سيدتي!!

قد كنتُ ملكَ الصمت يومًا قبل أن ألقاكِ.. وغدوتُ بعد لُقياكِ أميرًا في قصر التبريرات...

لم أدَّعِ أني أملك ناصية القلم.. أو أني آخذ بالحرف منحًى غير ما هو كائن.. إنما كنت أنأى بنفسي عن التبرير.

فقد كنت أكره تبرير نفسي وأفعالي للغير..

وعلى غير انتظار.. جئتيني أنتِ وجعلتِ "المبرر" من مفردات اليوم والأوقات جميعًا..

:

فأنا مضطر لتفسير تلك اللمعة في عيوني.. أثر الفرحة حين لقائك...

ومضطر أكثر لتبرير ما ينتابني من نوبات احتماعية أقبلت عليها فجأة بصدر منشرح رغم أنها كانت قبلًا عبئًا وواجبًا ثقيلًا.. رغبة في البحث عن كل ما يحدث لأشاركك به حديثًا وأجدُ ما يملأ كل الفراغات للأحاديث بيننا.. رغم علمي أنه لا مجال بيننا لنهايات الكلام..

كنتُ ولا زلتُ مضطرًا لتفسير الأوقات التي أسرح فيها بخيالي.. أسرحُ قريبًا جدًّا منك.. وفيكِ.. لأني أكون في أروقة الذاكرة أفتّش عن كلمة أو ذكرى أو حتى حرف قد يعطيني أملًا في القرب منك ثانية.. ذريعة قد أقنع بها نفسي وأقول: "ها أنا لم أكن سيئًا جدًّا.. بل أستطيع العودة والتذرُّع بتلك الحجة الجديدة"!!

كنت أتعجّب من كمّ النشاطات التي أفعلها كل يوم.. ومن عدد الأيام التي لم أفعل فيها شيئًا كذلك..

وكلما فكّرتُ في الأمر وجدتك السبب.. وأنا في انتظارك كالنتيجة..

كنت أقتل الوقت الذي لم تكوني معي فيه..

ولم يكن لي سبيل في ذلك إلا أن أنهمك في أفعال فارغات لن أجني منها شيئًا غير أن الوقت يمرّ سريعًا حتى أصل إليكِ...

ولم أتعلّم في محاولاتي تلك للتبرير والنسيان.. إلا مفردة جديدة.. كالمستحيل مثلًا..

وللمستحيل معي حكايات وأنواع..

للمستحيل أنواع..

يوم أن بدأت أكتشف أني لن أستطيع مهما حاولت الاستغناء عنكِ.. بدأت سحابات المستحيل في التحرّك في سمائي.. ووجدت منها أنواعًا كثيرًا..

ومنها استحالة حصولي على وجودك كلما أردتُ لمجرد أني أريد...

واستحالة حديثي معكِ في كل مرة بالصوت والعيون والجلوس متقابلين..

وبرغم الانكواء.. إلا أني تعلمتُ الجديد على يديكِ وبين راحتيكِ..

فعرفتُ أن حديثًا معكِ لم يكن شرطه صوت ورؤية.. وإيماءات وتفاعلات.. هو أصدق الأحاديث على الإطلاق..

تعلمتُ معكِ أن التواجد ليس مرتبطًا بالمحيط الملموس؛ فحضور ذكرياتك يوازي قوة حضورٍ لك عرفته ذات يوم...

تعلّمتُ في وجودك أن لكل شيء معنى.. حتى الصمت..

وأيقنتُ أن كل الخيوط تؤدي إليكِ سواء بالصمت أو المستحيل.. أو حتى الانتظار..

فقد كان حتى الصمت لغة بيننا..

لم أتعمّد يومًا أن أصمت.. إنما كنا حين الصمت نقف على عتبة حلم مستحيل.. يخشى كلانا النطق به.. نكتفي بالإيماء إليه صامتَين.. وترك الأمر لمقدرة كلٍ منا على الفهم والتخيُّل.. فكيف إذن لو كنا نطقنا؟!!

أعيش قسوة الذكريات وعذاب الذكرى.. والأمر كله كان بمثابة دائرتان تماسّتا...

فكيف إذن لو كانتا تداخلتا؟ أو كانت إحداهما تركت خطًا في محيط قطر الأخرى؟

لأنكِ بالصمت قهرتني.. حين صـــرختِ في صـــمت و لم أسمعك..

حين قررتِ وضوحًا لم أملكه حتى في قراراتي معكِ..

الصمت كان لغة كاملة في حضورنا على أرض الكلام..

وما كان أروعكِ حين تصمتين.. وتتحدث عيونك بكل ما نخشى نطقه بألسنتنا..

تخّيلي أن صوتًا للصمت بيننا كـــان ســـببًا مـــن أســـباب اشتياقي!!

تخّيلي - حبيبتي - أني الآن أسمع لذكرى الصمت بيننا الآن صوتًا!!

لكل أمر مهما صغر أو اختلف معكِ.. ذكرى وذاكرة..

أحلام ذات يوم قالت "للجسد ذاكرة"..

وعند حدود عينيك عرفتُ أنه حتى النسيان.. له ذاكـــرة.. عليّ أن أعيها جيدًا.. إن أردتُ لقهرك في ذكريات ذاكـــرتي تفعيلًا..

.. للنسيان ذاكرة ..

أو أجندة.. مجموعة من الأحداث أو الأشـــياء المخلوطـــة بأشخاص معينين ترغب الـــذاكرة في إقـــصائهم إلى الأبـــد.. ولكن.. هيهات...

ألم يتّضح لنا مؤخرًا أن ما نقوم بمحوه من ذاكرة الحاسب أو جهاز التليفون المحمول قد يُسترد ولو بعد حين؟.. حتى وإن أصبح هذا الجهاز مجرد "أشلاء"...

جزء صغير جدًّا من هذا الحديد حتى بعد تفتته قابل للإحياء من جديد.. ذاكرته قابلة للاستعادة مهما حدث فيه.. فما بالنا بذاكرة تعيش وتتنفس وتشعر كذلك ومحمّلةً بذخائر حيّة من الذكريات؟

أما يحقّ لنا أن نخشى ذاكرة قابلة للاستعادة ولو بعد بضع دهور؟.. ما دمنا أحياء في هذا العالم.. فلا يمحى من ذاكرتنا شيء.. إنما فقط يتم تأجيل تذكّره قليلًا.. لا نسيان هناك.. فقط هو تجاهُل بإرادتنا.. من كثرة ما نمارسه.. نتعود عليه.. ونُعلّم ذاكرتنا كذلك أن تستمر فيه.. حتى إن الذاكرة بعد فترة قد يحدث فيها خلل ما إن أردنا استعادة هذا الجزء المقصود.. وقد يُحيي الذكرى كذلك أمرٌ تافه قد لا نلتفت له في البداية.. ويكون هذا الجزء هو عود الثقاب الذي أشعل من جديد فتيل الذكريات الملغومة بأصحابها...

(٢)

وجع الذكرى..

فللشوق في الاشتياق إليكِ.. أشواك..

فثمن الشوق أن أتعوَّد ألا أشتاقك.. وأتعلّم كيف يحن القلب ويدقّ صارخًا طالبك بجواره.. وألا أسمعه..

شوك الشوق يسكن سكنك بعيدًا عنكِ.. ولا أقوى على مطالبتك بالبقاء.. فما عاد في الأمر مكان لغباء جديد...

"على حافّات انجرافات عاطفية.. رسمنا أكبر وهم.. في قصة هي أجمل من كل واقع.. وأصدق من أصدق صدق.. وأزهى بين كل الألوان.. وأكبر مستحيل رأيته في حياتي".

أرأى أحدكم يومًا عذابًا عذبًا؟

عذب العذاب يسكن حبك الذي لا زال طازجًا جدًّا.. وإن كانت له ذكريات.. فمن عذوبة الأمر لا من مرار...

وبرغم أني مدفوع دفعًا لترفك على أوراقي.. إلا أني أستعذب الأمر بكل تفاصيله.. فهي فرصة لأعيش حبك من

جديد من حرف لحرف.. وبين سطر وسطر.. ومن صفحة لصفحة.. وحتى على الهوامش.. فالهوامش لا تموت...

وعلى هامش الهامش..

"أتمنى عودتك دهرًا آخر.. فيوم منك لن يكفيني.. وسيزيد لهيبي نيران أخرى.. عودي.. وساعديني أن أغيب عن الوعي باقي العمر.. حتى لا أشعر بك ذنبًا يقتلني كلما نظرت إليه.. أو إليكِ بداخلي".

ربما.. كان الأمر كله هلاميات!!!

ربما كل ما حدث كان مجرد "تفسير خاطئ" لحدث ما مر بقربي وتخيّلته أنا لي.. وأنتِ البطلة كما تمنيتك دائمًا!!

ربما وجيعة العُمر الذي فرّق بيني وبينك.. وجمعني بكِ بعد أن كُتب قبلًا أن تكوني "مُستحيلي" غير القابل للتعديل في صفاته.. ربما هذا الألم المركّب هو ما دفعني للدخول في تلك الدائرة!!

ربما.. أكون قد لم أفهم بعد ما حدث.. إلا أن الأمر صار في أحضان الماضي.. أو كأن البكاء الذي أسمعه.. هو صوت أنين الماضي.. في أحضان ربما!!

ومتلازمة "ربما".. تُلازمنا!!

فالماضي في أحضان ربما.. يجرُّ معه الكثير من الحزن في تذكّره.. وقد يكون تذكرنا له مجرّد دمعة صامتة على أنّه "وقت فات" لا أكثر.

فنحن كثيرًا ما نندم على ما مضى.. شيء سرّي يخبرنا دومًا:

"كنتُ أستطيع الاستمتاع أكثر"..

... ربما تلك هي خيبتي التي لم أنسها يومًا معكِ!!

... ربما كنت أستطيع أن أحتفظ بك مدة أطول.. أو كنتُ على الأقل أستطيع استحضار لذة وجودك بسعادة أكبر لوقت أكثر!!!

على حافة "ربما" وقع كل شيء... وقع الحاضر وما خلته مستقبلًا.. وقع ما وقع من الماضي و لم أنتبه إلاّ الآن أنه أصبح ماضيًا.. هه... سخرية دراماتيكية.. نُخبر عن الماضي بصيغة: صار.. وغدًا.. وأصبح.. بمنتهى الأمل.. نكتب عن نفس الألم..

كلها متناقضات تقع في الحاضر.. فالماضي قنابل ملغومة ربّما في تذكُّرها.. أو ربّما أكثر...

هل تذكرين "ربما" تلك؟!!

تلك التي قضَت على آخر أمل لي في عدم التعلّق بكِ.. يوم أن قلتِ لي: "ربّما لا أحبك"... شعرت بهذا الأمل يتسلل إلى نفسي العطشى.. كتململ ذاكرة مقصيّة.

جنون الرغبة..

في أن نبذل جزءًا منّا للحبيب!!

ذلك الحنين الذي يولد من أثر الشوق الـذي يتـضاعف قسرًا.. ففي لحظات.. وأنا أكتب.. يتملكني حنين جـارف.. إلى أن أقول لك.. كلمة "أحبك"...

فعطش أن تقولها أشدّ عذابًا من شوقك لأن تسمعها...

تخيلي أني قد أدفع الباقي من عُمري ثمنًا – لو كنت أستطيع – كي أخبرك – فقط الآن – أني أحبك جدًّا.. وما أحببـتُ سواكِ.. وأن ما من امرأة سمحت لها أن تنظر بـداخل قلـبي بعدك؟!!

فـ"الأميرة" احتلت مدني كاملة.. و"الملكة" تُوِّجَت علـى عرش القلب لسنوات خلت وآتية..

كم من المرات قاومت رغبتي في تحريضك على كل الحواجز التي تمنعك عني وتمنعني منك؟

وكم من المرات فكّرت في أني لا بد وأن أحافظ عليـــكِ.. لأني لا أدري كيف أفعل غير ذلك!!!

من أين أتتني القوة؟

ربما من حبك؟

ربما لأنك أنتِ تجبرين القلب الذي تأسرينه على أن يحـــافظ عليكِ؟

ربما لأنك أسرتِ كل القلوب التي قابلتِها دون أن تحـــاولي حتى الإيقاع بها؟

ربما لأن عطر طينتك أقوى من أن نبحث له عن دليـــل أو أثر.. فكفى بكِ أثرًا؟

ربما...

ربما..

لكأنَّ ربما تلك صارت لغة كاملة منفصلة.. موجودة فقط.. لأسرد بها ذاكرتي في حضرة ذكرياتك..

أوَ تدرين؟

تعلمت مشتقات ربما على يديكِ..

لأول مرة في عمري الفائت والذي قارب علـــى الانتـــهاء أعرف أن ربما تحمل في طيات حروفها الأربعة أعمارًا أخرى..

خيبات وآمال.. حكايات وأحلام.. تحمل ماضـيًا ومـستقبلًا وخططًا في الحاضر الذي لا نملكه كذلك..

حينما أسرح في حالي قبلك وبعدك.. أحتار!!!

أأصفني قبلك؟.. أم أقول ماذا صرت بعد أن عرفتك؟.. أم إن من هو أنا عليه الآن هو ما أصبح حقيقة رغمًا عني؟

تخيّلت للحظات أن العمر قد غدا "الغد" معك فقط..

كانت كل طموحاتي في يومي تتركز في أن تظلّي معي.

"في الغد"..

كنت أودّعك وأنا أرتجف هلعًا خوفًا من أن تكوني غدًا قد نسيتيني.. وكأني ما كنت أعرف قدري عندك...

غبت عن الكون كله... دخلت في غيبوبتك أنتِ... غيبوبة تواجدك في حياتي.. آآآآآآه.. كم تمنيتُ أن تبتلعني دوامتـك يومًا فأهرب من كل ما يواجهني من سخافات يوميـة منـهم جميعًا..

منهم من؟

من هم حولي...

من أوهموني أني أعيش.. وأنهم بي يتنفسون..

... كانوا يعتقدون أنّهم يعرفون عنّي كل شيء.. كنت أسمعهم يرددون: "إنه كتاب مفتوح".. يا للسخرية.. لم يعرفوا يومًا أي كتاب ممسوحٍ كنت.. وعلى يديك صرتُ كتابًا منسوخًا لقصّةٍ مروية قبلي بأعمار..

كتاب أبيَ أن يكون كرّاسة أو مجرّد كشكول.. بل قرّر أن يسطُر حتّى النَفَس ليكون صفحة أو أكثر.. كتاب لن يجدوا ما يكفيه من ورقات لتُجمع تفاصيل ذكرياتي وذاكرتي فيه...

كنتُ الدَينَ في أعناقهم.. هكذا كانوا يقولون لي.. لأني كنت معهم.. أو أسمعهم.. أو أنقذهم كما يدّعون يومًا ما..

كنت صدرهم الحنون.. واجهة قوتهم.. مصدر إلهامهم في كل تصرفاتهم ومقدّرات مشاكلهم.. "هكذا أيضًا كانوا يقولون"!!

لكنهم بعد معرفتي بكِ صاروا بالنسبة لي كُكل من التدخلات غير المرغوب فيها عندي.. ولا هي أصلًا من حقّهم.

تلك الحياة.. وتلك المُلاحقات البشرية.. آه لو يعرفون أنهم في كل مرة يحاولون التقرّب لي بطرح سؤال اجتماعي ما - ليبدوا أكثر ودية - يحرجونني أكثر.. ويدفعونني للكذب أكثر.. وأنا لا أحب الكذب.. وأكره أن يتم اقتحامي كذلك...

وحدك اقتحمتني وتركتِني نهبًا للفتوحات من بعدك..

ماذا بي؟ أصرتُ رخوًا إلى هذا الحدّ؟!

إلى اليوم لا أعرف أكان قراري بالبعد عنكِ منتهى القوة... أم منتهى الجُبن والتراجع؟

لم أعرف كيف كنت سأمضي يومًا في طريقك.. أو كيف كنت سأدعك تمضين؟!!

خفتُ عليكِ؟ أم خفتُ وقتها على نفسي أكثر؟

هيا..

لأواجه الأمر بشجاعة أكبر.. أنا كنتُ جبانًا.. وفي كل مرّة أسترجع فيها ذاكرتي في حضرتك.. أغدو أكثر جُبنًا...

لماذا؟

لماذا؟!!

لأنّي أصرّ على أنه كان لا بد من نهاية.. في حين أنه لا شيء "لا بُدّ منه".. إلا القدر.. وطالما أني اخترت إقصاءك عن الحياة وادّعيتُ رجلًا لم أعرفه فيّ.. فأنا أصبح أكثر جُبنًا..

دهستك أنا يوم أن أعطيتك الذرائع لتشتهيني.. كنت أعرف نقاط ضعف حصنك الغجري دومًا.. "الحنان".. كنتُ

أعرف.. وبمنتهى الوقاحة استغللت وجودي بقربــك لألمــس روحك.. لمستك بإسماعك كلمات الحنين.. أعرف أني أثّــرت بكِ يومها..

كنت قذرًا جدًّا حدّ أنّ اغتسالين أو أكثر لم يكونا ليــصلا بي إليّ نقيًّا ثانية.. أبدًا.

لماذا أجدك دومًا في أحلامي واقفة كملكة.. وأنــا أتــذلل لك؟

ألأني خذلتك في غمرة خوف رجولي أحمق آثــرتُ معــه سلامتي.. وتركتكِ في عرض بحر أنا أوصلتك إليه؟

ألأنك كنتِ ملكة لأحلامي وفارقتكِ ملكة لغباءاتي معكِ؟ كنتِ فيها دومًا الضحية وأنا القاتل!!

أنا!!!

أنا؟!!

أنــ .. ــا!!

"أنّ" ماذا؟!!

أنك لم تعودي معي؟!!

أن كل ما ولّى من الذاكرة لا يُستردّ..

أنّ الطير والسماء والهواء والعطور أراكِ في أطيافها جميعًــا وأنا نائم؟!

عندما عرفتك لم أنم.. فرحتي كانت توقظني بالأيام.. وحين فارقتُك لم أنم.. لأنك كنتِ شبح نومي.. تأتين لتُذكريني بعدد الليالي التي انتظرتيني فيها وأنا...

خـُــــنـــــتــــــك!!!

عرفتُكِ وأنا أخون امرأتي.. لا.. بل أنــتِ امــرأتي وهــي المكتوب.. آآآآه منكِ يا قدري.. فقد كنتِ أنتِ قدَري...

لماذا نعذّب ماضيًا لنا بقولنا عنه إنه كان قَدَرًا؟

أنحطّ من شأن أصحاب الماضي؟ أم نبرر لأنفسنا خيانة تلو الخيبة ونضع على أعتاب ذكرياتنا بعض الورود بهذه التــسمية علّ الورود تجعلها تسامحنا!!

كل مرّة أتذكّر فيها نظرة عينيك أخونك فيها.

لماذا؟!!

لأني أنا الذي تركك على أعتاب دنيا رأيتيها معي..

وانسحبتُ أنا لأني لم أفكر فيكِ...

دعيني..

دعيني ألومني ولو حتى لبضع سنين.. فأنا تناسيتك.. بمنتهى الخرق.. نسيت أنك من ذكّرتيني بأني هناك.. وراء الضحكة وخلف الملابس الرسمية.. لا زال هناك قلب يهفو للمحة حب.

ليوم حافل بكل الجنون حتى ولو كان محظورًا..

ذكّرتيني بأني كنت ناسيًا..

جعلتني "أراني"...

كم من المرات ننظر في مرآة تعكس لنا صورة فقط؟ أما أنت فعكستِ لي روحًا لم أعرف أنها لا زالت ترفرف بين جنباتي...

لطفولتك أحنّ باكيًا.. أو أبكي حنينًا.. آه يا بنت عُمري.. لم تهتمي يومًا بأني أكبرك قدر عمرك يوم أن بلغتُ أنا الفرق بين عُمرينا!!

يوم ولدتِ بلغتُ أنا العام اليتيم بعد العشرين.. ويوم أن بلغتِ أنت نفس العام تقابلنا.. يا للألوان المتجمّعة في ذكراك!!

.. كأقواس قزح متزاحمة.. أكاد من شدة الاختلاط أتوهّم ألوانًا لم توجد بعد.. وبمجرد أن آتي على ذِكر أحدها يبهرني وجود آخر جديد وليد نضر لأقف وفمي مفتوح على حافته تتراكم الكلمات ولا أجد وقودًا كافيًا من الصوت لإيصالها..

غزوتني عقلًا يا بنت الفــرق بيننــا.. أكــانوا يلــدونك لتُشقيني؟!!

أكانوا يعرفون وهم يكتبون تاريخ ميلادك أنهــم يكتبــون شهادة رحيلي معكِ؟!!

فحبي لك سكنه المستحيل..

وحبك لي.. سكنته آمالي العظيماتِ..

حب منزوع الأمل.. وكامل الألم!!

فعندما أتجول في أروقة الأوراق القديمة.. أجد الأمــر ألمًــا بحتًا!!

والأمل فيه كان معدومًا منذ البدايات الأولى!!

ورغم ذلك تغاضينا عن اختلاط الحروف وأخــذنا المعــنى الذي أردنا فقط..

كنا في لحظة أرادتنا فيها الضعف رهائن.. ولم يكن لنا بديل غيره..

إما الضعف.. أو الانحراف..

أعتقد أن الأول كان أخفّ ضررًا؟!!

وكلا الأمرين.. يحمل في طياته معنى فجيعة البعد المؤجل..

وصرتِ للعمر فجيعة ووجيعة...

بل صرتِ وجعًا منفيًّا في أقصى القلب..

يكاد القلب كلما دارت دورة الدماء فيه أن يضخ كل نقطة منها تجاهك في المنفى

المقصي في ركن القلب.. وكأن وجودك حتى مع الوجع.. سبب حياة..

وأتمنى من أعماقي لو لم يتبقّ مني إلا الجزء الذي أحبَّـــكِ.. النبضة التي نطقت معها "أحبك"..

أتمنى لو أن الزمن كشريط الفيديو.. يصلح أن نعيد جـــزءًا أحببناه.. ونكرره مرات ومـــرات.. إذن لكـــررتُ لحظـــات استكانتك داخل أحضاني وذروة الإحساس بيننا أبد الـــدهر.. وليكن ما يكون..

وأعود لأتأمل حرفك من جديد.. فأجد الكلمات معـــك كانت تختصر عمرًا آخر.. بمنتهى السهولة..

اختصرتِ العُمر.. في بضع كلمات...

تخيّلي.. كنتُ أكتبُ وقت أن عرفتك.. نعم.. فكلٌّ منّا يتوهّم في نفسه أديب ما أو قصّاصة أخرى.. ويكتب ويترك الآخرين ينفخون بالونة كذبه بمخلّفات أنفاسهم.

بثاني أكسيد الكلمات.. منتهى.. منتهى المُخلّفات.

ويعود صاحب القلم منّا لينظر لنفسه وكأنّه أعظم الكُتّاب على الإطلاق..

أتدرين؟ الليلة.. وأنا أكتب.. لا أرى فرقًا أن أكتب بمواراة أو تشبيهات أو أنّمق الحرف الذي جمعني بك ذات جملة.

فقط تركتُ قلمي لينزف جرحك..

يومًا ما.. عنّفتُك.. في ثورة غضب منكِ وأنا زدتها اشتعالًا.. صرختُ فيكِ لأنك كنت تبكين.

وللرّقّة: كنتِ تبكين لأنك آلمتني.

يومها آذيتُك بمنتهى العجرفة... "أتبكين وأنا المجروح؟.. من ينزف.. القاتل أم المقتول؟"

هكذا المُمتلك!!!

آآآآآآآه يا جرح العُمر الفائت والحاضر.. فما لي من قادم بعدك.. فقط القادم سأهبهُ لأتجرّع ألمك قطرة قطرة.. نعم يا

غالية.. سأنزف جرحك كما لم تنزفي.. فالقاتل يبكي أحيانًا.. فما العجب إذن؟!!

تُرى.. لو منحتْك الحياة فرصة ثانية.. أكنتِ ذبحتيني أنـــتِ أولًا؟!!

ثانية أعود لغبائي؟

أكانت حرب هي؟!!

أبدًا وربّي.. لم تكُن..

فأنتِ من رسمتِ العُمر ضحكة.. لُعبة.. لحظة حبٍ مسروقة من عُمر الزمن وعيون الناس.

أأشكُّ في قلبك الأبيض؟ اليوم؟!! لا.. سأنـــسى شـــكّي هذا وأتذكّر فقط أنك منحتيني تذكرةً للحياة.. رحلـــة ولـــو لأشهرٍ فقط تُختم ولو بيوم واحد مـــن الأحـــلام الورديـــة.. وعدتُ لأهدمك وتوهّمت أني أبني لي حياة..

أي حياة تلك؟!!

.. أتلك التي أقضيها ساعة بكاءً عليكِ وساعة تأنيبًـــا لأني ذبحتك؟

تُراكِ يا بنت أحلامي الآن تذكرينني؟ تلعنينني؟!! هل تتمنّين رؤيتي؟!.. أستُلقين وقتها بآخر باقة ودٍّ كانت بيننا في وجهـــي وترحلين؟!!

أعرف أنك لن تفعلي.. فذكريات براءتك تملأني.

"أتحرّق شوقًا.. لشيء لا أعرفه"!!

هكذا كتبتِ لي ذات يوم.. و لم أستطع يومها استيعاب أن يلتهمنا حنين.. أو يأكلنا شوق لما لا نعرفه أصلًا.

جلّ الذي فكّرت فيه.. هو أن أضمك.. أن أريحك من عذاب هذا الشوق المجهول الاتجاه ونقي المصدر.. أردت أن أكون أنا مكافأة السماء لقلبك الأبيض.. "ألم تخبريني يومًا عن جملة لعبد الوهاب مطاوع.. للقلوب التي تشبهنا.. بأن لها جائزة في السماء؟".. كم تمنيت أن أكون "أنا" جائزتك..

في حضورك لعبت معي الحياة لعبة الحرمان.. وفي غيابك أكملت الحياة الجولة الثانية.. بلعبة من نوع آخر.. التعذيب بالذكرى.. ولعمري.. إنها أقسى أنواع العذاب وطئًا.

و ذات ذكرى.. قد حضرتِني مرتين!!

مُتهادية كنتِ في شوقك لي..

طوّقتِني بمنتهى الرقّة.. والرقة كانت طوقك..

ويوم أن جُنّ جنون الحبّ فينا استوقفتِني: "إلى أين نحن ذاهبان؟!!"

خدعتك يومها و لم أكن أدري.. رسمتُ لك الحُلم بقلمٍ من لا لون.. وأنا لا أذكر إن كنتُ توقّفت أنا وفكّرت يومها أصلًا أم لا.

فقط كنتِ أنت بجمالك.. بروعتك.. بمنتهى تمرّدك.. كنتِ غايتي.. ولا غاية لي فيكِ إلا بقاؤكِ.

نعم.. أنتِ تعلمين أني ما بغيتُ فيكِ من شيء إلا وجودك.. فأنا رحلتُ و لم أستمتع برائحتك حتّى.

قطارًا كنّا نستقلّ وعُدنا فيه وحدنا بلا سائق.

لا أدري..

هذيت الليلة لعُمر قادم..

منهكٌ قلمي.. وأنا أكثر...

سأعود لكِ.. ولكن.. ذات ذكرى...

..........................!!

(٣)

أنتِ..

أحايين.. قاتلة أحيانًا!!

حين نسكن طرفًا من العالم لم يكن متاحًا لنا قبلًا أن نصله.. لمجرد أننا أقنعنا أنفسنا أن نصيبنا فقط هو الذي في أيدينا.. وأن ما هو أعلى التلة هو ملك لأقرب طائر رخّ قادر على أن يحط على الطرف ليخطف الموجود هناك...

حين نقاوم غباءً عارضًا كان يتملكنا لأننا لم نفكر يومًا في أنه غباء..

حين تختلف نظرتنا لمعنى المستحيل..

حين نتعلم طرقًا جديدة في الكلمات لنعبّر عما وصلنا إليه من مشاعر قد يكون غيرنا قد شعر بها ذات يوم.. أو قد لا يكون ..

حين نصحو من نوم كنا نغطّ فيها قبلًا كثيرًا جدًّا.. ونكتشف فجأة أن "خسارة عمرنا يضيع في النوم".

حين نواجه المرآة ذات صباح.. لنخبرها أننا لسنا خائفين من النظر لانعكاسنا فيها.. فمهما كان السن المرسوم فيها على

وجوهنا.. فنحن نعيش.. رغمًا عن عدد السنين.. لأن الله قدّر أن نكون.

حين لا نخشى إلا ضياع الحلم..

حين نجد كل الأمر يستحق.. وما سواه لا نراه..

حين كل تلك الأفكار مجتمعة.. فلنعرف أنّـا في حـضرة حب.. وعلى مشارف جنون به.. ولنقبل الأمر بسلاسة.. لأنه آخذنا حتى وإن قاومنا.. فلنستسلم بسهولة.. فالمقاومة ستغدو ضربًا من مضاعفة العذاب..

ذكريات ذاكرة

في مستنقع الذكريات تنمو طحالب لها أسمـاء.. فهنـاك طُحلب اللقاء.. وطُحلب الوداع.. الذي لم يحدث.

متى التقيتُكِ؟ في أعوامي الخمسين؟ أم قبلها؟

لماذا الليلة بالتحديد يتقاطر ألمك على أصـابع إحـساسي كدموع شمعة تحرق يد حاملها!!!

يومًا ما.. ستمتلكُكِ يد رجل غيري.. غير "أنا" الذي حلم بكِ.. أم تراه امتلكك فعلًا وأنا الموهوم في زمني المتوقف عندك؟

لا.. بقايا إحساس لي تنبئني أنك لا زلتِ عـذراء الـنفس والجسد.

أو تدرين؟! أدعو لكِ في كل سجدة صلاة أن تنسيني لتتعلقي بواقع.. فحتى لو عدتُ حبيبتي ما عاد لنا في قطار الحياة من مقاعد لنا معًا.. فمحطتي قادمة لا محالة.. أما أنتِ فقطارك قام الساعة لا غير.. محطة وصولك قد تستغرق عُمرًا كعُمري الذي رحل قبلك.. وبدونك.

وصلتِ أنتِ لرصيف عُمر متأخرة بزمن الأحلام كاملًا.. وأكثر.. وصلتِ في وقت الإعصار.. وقت أن بدأت أتمرّد على رجولتي النائمة.. ولم أجد بجواري من توقظني.. حاولت أن أقول لها أنا مارد نائم تحت الغطاء.. فلترفعيه فجأة لأعودَ للحياة ثانية.. على يديكِ...

نظرت لي شذرًا وقالت:

"جُننتَ أنت حتمًا"..

"حتمًا"... مفردة خائنة.. ما المُحتِّم بها؟

... لربما كان شيء من احتضار الاحتمال على المفرَق تنبئ بالتوعُّك العاطفي الذي حدث بيننا.. فقد تعثرتُ بحجر في الطريق.

للمستحيل.. أنواع.. أخرى!!

قابلتُ صديقًا لي.. كان يحبُّ فتاةً تكبره سنًّا.. وحاربا.. ونسيا كل المعقول.. وفازا في النهاية.

رأيتهما فتذكّرت كم أنا ضعيف حقًّا.. لم أعرف كيف أدافع عن حبّي منذ أن كنتُ في عمرهما.. ولكن.. مهلًا.. عن أي حب أتحدّث.. هل كان في موزاة شعوري بكِ يوم أن عرفتُك؟.. أبدًا.

فحبك كان بركانًا ثائرًا في نفسي.. لم أتنبّه إلى أن حممه تلك هي التي كانت تحرقني قرابة نصف القرن إلى يوم أن دخلتِ حياتي.. فقد ظللتُ معتقدًا أن تلك اللسعات ما هي إلا عيون حاسدين لا يدرون أنني أحسدهم قبلهم.

ليتك تعودين.. نعم.. رغم الألم والمستحيل.. أتمنى فقط لو تعودين لبضع أعمار أخرى.. أتشرّبك فيها أو أعتصرك لتُقَطّري حبًا لي.

"المستحيل".. مفردة لم أعرفها قبلك.. تصوّرت أنها شماعة الخائبين العاجزين.. ولم أعرف أنها كيان له إرادة.. وبل ويضادّنا لدرجة أنه يحول بيننا وبين ما نريد.

كيف أصبحتِ لي هواءً؟!

بهدوء مقنّع تتسلل تلك المشروعات الصغيرة للكوارث القادمة..

ثمة ومضة في الكون أوهمتني أنك موجودة.. وثمة لحظة جنون عاشرتُها دهرًا و لم تأخذ مني سوى لحظة وجودها فقط.

فشتّان بينك وبين لحظة الجنون.. رغم أنكِ مركّب جنون دائم.. ولا وجود للتأقيت في صفاته.. ولكن يبدو أنه لا شيء في الكون له طعم إلا إذا ارتبط معنا أو لنا بذكرى أو ذاكرة ما تقع في مدارات الحياة التي تمرّ بنا كل يوم.. وبدون أحداث خاصة.. فإننا نقف منها موقف المتفرّج المبهور..

نحلم بحياة حب.. بشوق جارف.. بقصّة تصلح للحكاية أو رواية تكون للنشر ذات يوم ونحن أبطالها..

أما فكر يومًا أيّنا لماذا الكُتّاب هم أتعس البشَر؟ و لَمَ أقلامهم تقطر ألمًا ولون الهواء لديهم أسود لا غير؟ ليس تشاؤمًا ولا رغبة في الدفاع عن السواد.. إنما هو إحساسهم العالي.. فمن عُمق الألم الذي يراه معظمنا عقيمًا.. تولد لهؤلاء على جسر الحروف قصة أو مخطوطة أو رواية ما.. نقرؤها لنتساءل دهشة أو لنندهش متسائلين:

"لَمَ لم أكتب أنا تلك الحكاية؟ مع أنها كانت حكايتي؟ وتلك الكلمات أعرفها وأراها كل يوم في مرآتي وعلى وجه قهوتي.. لماذا لستُ أنا؟"

يحسدون الكاتب على مجد من ألم.. وهم لا يعرفون أنهم بقراءتهم له هم أمله..

أيا معضلة الصدفة والقدر.. أجيبيني..

أقدار تلك أم صدفة إلى جمعتني بكِ؟!!

أأكون أهنتُك إن أنا قلت إنك صدفة.. مجرد صدفة كان يمكن أن تحدث مع غيري؟

أم أن إهانتك تكمُن في التسليم بأنك قَدَر وما كان لي حيالك من شيء إلا أن أتصرّف كيفما أُتّفق؟

لا..

بل كنت قَدر هذا العالم.. وصدفة هي التي جعلت منك إنسيّة.. أتذكَرين مرات مائة تقريبًا قلتُ لكِ فيها إنك كالنور؟

نعم..

لم أجد أنقى منه لأهديكِ إياه شبيهًا..

بدأتُ نزيفي يوم قرأتُكِ.. قرأتُ لكِ شيئًا أنثويًّا ممزوجًا ببعض نفور ويتملّك من يقرأه الثورة.

بعطش من ملّ عُمرًا ونصف في التحرّق شوقًا لكلمة تدفعه للتفكير.. قرأتك.. فهمتك.. تعاطفت معكِ حدّ التناحر معكِ على منطقة النزاع من الحرية..

يومها عرفت أني مهما فكّرت لم أكن لأصِل لقطرة في بحر حروفك.. ولكني وجدت نفسي أغار على اللغــة منــك.. أو عليك منها.. و كأنك احتللتِ ما كان مسموحًا لغيرك.. مــن قبلك.. وبمجرد دخوله حيّز قلمك أصبح ملكك وحدك.. ولا محيص من التنازل الكامل عن نطاق القلم فيما كتبتِ..

لـــمَ دائمًا نهيم عشقًا.. في كاتبة؟

يومها قلتُ لذاتي المنكوبة: كوني أقوى.. إن هي إلا خدعة الحروف.. تتركّب في أشكال مختلفة لتعطينا نكهة الحب.. لـمــا هو ليس حبًّا.

لا أدري..

رقتها لم أتوقّف وأسمع..

أكان تربُّصٌ بي على حافة النكبة؟

يومها صادفتُ فيكِ عقلين.. عقل في رأسك يفكّر.. وعقل في قلمك ليكتب بعقلِ أيضًا...

تطاولتُ على حضرة الأنثى في وجودك.. شعرتُ بـأني إن هزمتكِ أكون قد هزمت داء حواء على مرّ الزمن.. فما الزمن لي إلا أنا وعُمري.. وما حواء لي إلا أنتِ.. أو مَن صـادفتهنّ من نساء كلهنّ تجمّعن فيكِ...

حاربتِني.. على نفس المبدأ.. في نفس الساحة التي أصـرخ وأنكوي فيها الآن.. "ساحة الحرف والكلمة".

من حرف بدأتُ مشوار عمر.. وعلى مائدةِ قربان أقـدم للغة واحدًا من تلك القرابين من حروفي لعلّها ترضى عنّـي.. وتصفح لي جرائمي في حقك.

فأحيانًا ما تصفعنا الكلمات كأنها تتولى تهذيبنا.. وغالبًا مـا تنجح وعادة ما نعود لنفس الخطأ ودومًا لا نتعلّم...

أحيانًا.. غالبًا.. دومًا.. عادة.. مفردات تغلّـف مواقفنـا وتعطينا فرصة لتزور مواقف ما كانت لنا يومًا.. تجعلنا ندور في فلك الأحداث وكأنا كنا أطرافها يومًا.. وبمجرد أن تـسحقنا دائرة الأحداث تلك.. تتغير المفردات كلها وتنصهر في بوتقـة الضائع من الأحلام.. ليكون الناتج.. ليتنا...

وكأننا نعتصر المستحيل من اللغة لنهديه إلينا في أيام كلـها مولد وولادة لكل جرح توقّف بنا على عتبة زمنٍ ما..

تمامًا كما توقّفتِ بي أنتِ على عتبة زمن الأحلام الموعودة.

كنتُ أعرف تمامًا أن زمن الحلم لمن هم في عُمري قد مات تمامًا.. مات بشكل نهائي وغير قابل للإحياء أو الإعادة.

وعرفتُك على حين التفاتة.. فرُقتِ لسنوات عمري المحرومة وشيبتي التي غزتني في نهار فائت منذ سنوات بعيـــدة.. كـــأني فاجأتني فجيعة العُمر الذي لم أكن أدري أنه سيمرّ بي نسيًا حتى يوم لقياكِ.

حاولتُ كما يحاولون أن أستدلّ بهياكل أيـــام أو بـــشرٍ أو موعظة مّا.. وكلها لنا تشابهت أو اختلفت..

فعلى هيكلٍ مثلث تسمّرت بعض أجزاء حُلم معقود علـــى حافة العُمر.. كحجاب من أرض الجنّ.. مكتوب على أطرافه "هيكلة الحلم المسروق تتضمن بعض التشكيل!!!"

تاقت نفسي لبعض اعتراف قد يطهّرني من ذنب إلقائي بكِ على قارعة الحياة.

وسؤال يكاد يقتلني..

أكنتِ تصلحين ابنتي؟

وكيف لا.. وأنتِ الفتاة التي حُرمت منها حتى من صلبي..

وكيف نعم.. وأنتِ هذا الحلم الذي لم ينفك يحاصرني مـــذ فقدت للإحساس طعمًا منذ سنوات انقضت..

يسألون كيف سردت ما سردت و لم أحكِ؟

كيف كتبت ما كتبت ولم أستعمل معــك إلا الوصــف سلاحًا؟

سألوني..

ألم يحدث ما يستحق الحكي بينكما؟

... آآآه.. ما لهم من الكلمات سوى النميمــة ومعرفــة الأخبار.. إنما جرحي الذي تسكنينه أنتِ.. لم يعرفوا عنه بعد.. ولن يفهموه.. إلا عندما يُجرحون مثلي..

أكُلنا نُجرح بنفس الوجع ونفس عمق الجرح؟

هذا إن كنا نشعر بنفس الطريقة التي أشعر بها أنا.

تسجنني فكرة أني ظلمتك.. ولهذا لا أستطيع الغفران لك..

قد كان من الممكن أن يتغير الأمر لو أنك كنتِ ظلمــتِني.. كان فعلًا هناك أمل أن أتحرر من هذا الجرح مبكرًا.. فقد كنت سأجد لنفسي المبرر لتعليق الخطأ على شماعة وجودك..

شيء محير جدًّا.. أن تخلع معطفك وتبحث عن مــشجب لتعلّقه عليه.. وتدور حول نفسك مــرات ومــرات في تلــك الغرفة.. وفي النهاية.. لا تجد مفرًّا من الإمساك به.. والوقوف

في انتظار انتهاء مدة وجودك هنا.. في هذا المكان الذي وهمت أولًا قبل أن تدخله أن هناك مكانًا فيه سترتاح بالداخل!!

ألم يكن الأمر عناءً لا استحقاق له؟

أأقول يا ليتني بقيت بمعطفي على كتفيّ.. بدلًا من أني توهمت راحتي بعد خلعه؟

أتدرين ما المعطف يا فتاتي؟

هو سنيني التي مرّت بجرحي وآناتي..

هو عمري الذي انقضى بدونك.. وتخيلت أني إن خلعت عني معطفًا توهمته.. فسأتخلص من عمر مر بعيدًا عنك كما لو كان في الأمر خدعة مريحة!!!

غريق بحرك أنا...

وكلما وصلت إلى شاطئ.. وجدته متواطئًا معك...

حتى "تكّات" ثواني الساعة تكاد تفتك بعقلي ومتواطئة معك أيضًا..

أسمع ضجيجًا دون أصوات.. وكأنه صوت الصمت في بُعدك.. فمعك فقط كان لكل شيء في الكون طعم ولون وصوت.. فقد صرتِ أنت ذاكرة الأشياء لدي.. وتلك الأشياء

تحتفظ بكِ كذاكرة لها.. اتفاقًا منها ومنك على أن أكون أنـــا الضحية...

عندما فقدتك.. حتى الصمت.. صار وحشًا يلتهم وقــتي ويزيد تساؤلاتي ويُلهب حيرتي.. أكان الصمت ثمن بعدك عني كما كان قدري معكِ هو "غواية الكلمات"؟

لي فيك بعض أحاسيس وتشبيهات ما أظن غيري عرفها.. لأن مثلك لا تتكرر أبدًا..

قد لا أجدها حتى حين أحاول وصفها.. إنما الغريــب أني تعلمت معك - بالإضافة إلى قاموس ربما - لغة من جديــد.. لغة وُلدت في رحم حبي لك.. وجاء المولود يشبهك كــثيرًا.. كثيرًا..

وكأن الحروف أبت أن يكون الحرمان كاملًا.. وأصرّت أن تترك لي منك أثرًا لا يُمحى.

"إحساسي بك... باهت"

كانت جملة.. من زمن صــدماتك المتتاليــة لي.. أول أن تعرفت على الغجرية التي احتلت روحك قبل قلمك.

أألعنك؟ أم أسبّك؟ أم أحتضنك حتى تصدقي أني أحبك؟

أتحبينني وتنكرين؟ تتعــالين وتتكــبرين؟ أم إن إحــساسي يسكنك وأنتِ لا تفهمين؟

"كلها أسئلة عصفت بي لحظة أن قرأت جملتك".. قررت لحظتها أن أجعل حبك لي أزهى الألوان على الإطلاق..

وقد كان...

"أنتقمتُ من جملة قلتِها؟ أم إن الأمر كله وُلِد ثمنًا لرفض شعرت به منك في البداية؟!!"

... إذن.. ما استحققتُ الحياة يومًا إن كان الأمر كله محض انتقام...

فمن ينتقم من الملائكة.. إلا إن كان إبليسًا آخر؟

أكره أن أجعل من نفسي - من أجلك - أحمق وإبليسًا وخائنًا ونذلًا وبائعك بلا ثمن.

كان مستحيلًا جدًّا أن ألعن نفسي من أجل امرأة.. إنما أنتِ لست مجرد امرأة.. أنتِ كل ما كتبت.. وما لم أكتب بعد.

أعدتُ صياغتي.. بناءً على تركيبتك...

وكأني أبيت إلا أن أناسبك.. بأي شكل.. وتغاضيت عن الجرم الذي كنت في ذات الوقت على وشك ارتكابه.. جرم تعلُّقك بي.. وارتكبت ما هو أبشع.. وتركتك تحبينني.

خلفيات رمادية...

في ذكراكِ.. خلفيات رمادية.. تسكنها كلماتي لكِ..

يسكنها وعدي الذي قطعته بألا أغادرك..

تسكنها وردات سوداء.. حدادًا على حلمك الذي وأدته أنا..

عبثًا أحاول استئصالك من روحي.. وجدًّا تنجح كل الأشياء في منحي كل يوم سببًا جديدًا لألعن نفسي وأذبحها من أجل جرح زرعته في نفسك.. وأراه يطرح كل يوم زهرة جديدة.. تدمي روحك الرائقة.. التي ما عكّرها سوى وجودي..

ففي تواطؤ....

... غير مُعلن بين ذاكرتي وبينك.. انطلقت كثير من المخفيات المتواريات إلى عالم الواقع.

"وأصلًا لوعتي بك وروعة وجودك لم تتعدَّ عالم اللاواقع"..

... إنما الغريب أن سطوتك "غائبة" في نفس شدة وقسوة وقوة سطوة "حضورك"..

فيا أنثى ملكتيني.. لِمَ لم تبيعيني أولًا قبل الرحيل؟

أعرف أن رحيلًا كنت أنا بطله لم يكن لكِ أن تتصرفي حياله سوى بذهولك وصمتك وحيرتك ودموعك.. رجحيم

الانتظار رفيقك.. إنما لا أريدك أن ترحلي.. حتى بعد أن رحلت أنا.

أوقات أتنسم وجودي.. في سؤالك عني.. في اهتمامك بي.. في بعض موارة تجيدينها.. ولكنها لا تنطلي علي لأني حفظتك.. رغم أني أكتشفك كل يوم من جديد...

وأوقات أخرى أهرّب منك حتى لا تعودي إلى عهد خنته أنا وستبقين أنت وفية له أبدًا الدهر..

ويخونني قلبي.. قلبي الذي تنفس وجودك وعاش أيامه معك وقت أن كنا معًا..

فخلف ضلفتي الذاكرة.. أضأتُ ضوءًا خافتًا.. لأتلصص في شعاعه على ما أدرجته الذاكرة في قائمتها.. أختبر نذالتي القديمة.. وأرى هل فعلًا كنت نذلًا جدًّا.. أم أني لا زال يسكنني الإنسان الذي أحبك يومًا...

ويا لهول ما رأيت!!!

رأيت مدينة كاملة تسكنينها ملكة.. رأيت عالمًا من الذكرى الزاهية جدًّا.. ولن تبهت بمرور الوقت...

يومها عرفت أنه ما من ضميري فكاك.. وما من ذكرياتك التي تسكنني هروب.. مهما كان.

وفي غير تواطؤ...

... أنا الذي يبحث عنك كثيرًا في أروقة عقلي النائم بعد البُعد.. علّي أجد لنفسي مبررًا.

فخطيئتي معكِ قد لا أتشبث بغفرانها قدر ما سأهتم بنقائي منها أو التكفير عنها.

أتظنين أني أكتب لأهديكِ قرار ما؟

أو أخبرك نهاية ما حدثت في غيابي عنكِ؟

لا..

أبدًا والله.. فأيامي وأحلامي.. حتى مفكرتي توقّفت عن عدّ الوقت يوم أن ولّيتُكِ أنا ظهري.. بمنتهى الحُمق.. وأنا أعرف ماذا أكون لكِ.. وبماذا أنتِ تحلُمين..

سيُحمّلونك نتيجة خطأي معكِ.. سيقولون لكِ إنك من أخطأت بحبك لي.. كيف تحبّين من يوازيك على بعد خطّين من العُمر؟!!

ألهذا الحدّ الحبُّ خطيئة لا بد وأن تكون لها قياسات؟

أكلُّ مرّة نجد فيها قصة ما نتربّص بالخطأ فيها، لا لنثبت خطأها حقًّا، بل لأننا عجزنا يومًا عن الوقوف في مهبّ قصة مشابهة؟!!

هل كان كل حرف منقوش بدم أحد أو إحـــدى ضـــحايا الحب هو عار وجب على أطفالنا ألا يعرفوا بقصته؟!!

وماذا نترك لهم إن انتزعنا منهم نقاء الحب وسطوته؟

لماذا لا نتركهم بحبهم لنا ولربّهم وأصدقائهم؟

إلى ماذا سيُفضي الحب؟ إلى زواج؟ أم إلى معرفه بقـــوانين كون لن يختلّ لمجرد أنّا أردنا؟

لماذا ننكر حقًّا أعطيناه لأنفسنا بمنتهى التخفّي وكأن المشاعر جريمة والأحاسيس ذنب لا يُغتفر؟!!

سيجرّمون حبك.. ولن أستطيع لـــكِ شـــيئا.. ســـيقتلون براءتك وسأتركك أنا نهبًا لنهشهم..

سيصلبونك على جدران خطاياهم وكأن أحدًا منهم بـــلا خطيئة.. وسأتفرّج أنا عليهم وعليكِ.. بل وقـــد أشـــارك في الرجم حتى لا أُتّهم بأني من أجرمتِ في حقهم وأحببته!!

"كل دا كان ليه"..

خلفية قاتلة.. تتبع الرماديات من الخلفيات التي تقـــتلني في كل لحظةِ بعدٍ عنك..

خلفيه تصنع الجرح من جديد.. ولأجل القدر.. كانت هي بدايتي معك.. وللسخرية.. يتجدد ألمي كلما تجدد عزفٌ منها

على وتر.. بل إن الجميع أصبح يسمعها.. وتعجبه.. وكأن جرحي صار تسلية الجميع.. دون أن يدري أحد..

فعلى يديكِ تعلّمت أن حتى الهواء له ذكرى.. والكلمات عندما تتكرر فإنها دائمًا وأبدًا تحمل روح الروح الأولى التي نطقتها..

تخيلي أني كلما مررتُ بامرأة تحمل عطرك ألتفت كالمجنون أبحث عنك فيها؟

تخيلي أني كلما رأيت لونًا رأيتك فيه يومًا أدقق بملامح التي تتشح بهذا اللون علها تكون أنتِ والزمن غيّر فيك ملامح؟

حتى تلك الأغنية.. بتُّ أصارع دموعي إن سمعت منها دندنةً حتى.. لأني أشعر بكِ جدًّا وقتها..

لماذا لم أفهم يومًا أني كلما زدت جرعة التَّمَسُّكِ بكِ زاد عذاب البعد أكثر؟

لماذا لم أحتفظ بتلك المسافة الآمنة في مشاعري تجاهك؟

لماذا فقدت وقاري واتزاني وكل مميزات وجودي وكياني حين وجدتك.. وصرت فقط ما يناسبك أو ما يكاد يلامس روحك حتى؟

وسيظلّ الأمل فيكِ دائي.. ودوائي..

أشحت بقلبي عنكِ ذات يوم.. لأحمي ما تبقّى فيكِ.. لمن يصلح أن يمتلكه.. رغم أن يقينًا يكاد يقصمني أنه ما من مناسب لكِ إلا أنا.. إنما هي تزامنات عصفت بأعمار لم نختر أين ستقف بنا.. ولا على أعتاب مَنْ..

أملًا في أن تكوني كما حلمت لك.. رغم أن هذا الأمل هو ألمي وقاتلي..

إنما لم أستطع يومًا أن أضع حدًّا فارقًا بين رغبتي في أن أعيش معكِ الحياة.. وبين أن تعيشي حياتك حتى ولو لم تكن معي..

وظللت من وقتها سجين أملي فيكِ وألمي الذي أبدًا لم يكن منكِ.. إنما فيكِ كذلك...

أو كلما كتبتُ حرفًا.. يصير مأواه ذكراكِ!!

كالقبلة صرتِ لحروفي.. أو كأن قلمي صار مرهونًا بكِ.. بوجودكَ في حياتي.. بوصفي لكِ.. ولغيرك لا يتحرك قيد سطر واحد!!

لكأنك أصبحتِ كل المرادفات والمتناقضات في كل أزمنتي وأوقاتي..

منذ زمن اللقاء.. وبعده لوقت البُعد.. لم أتخيل شكل حياتي قبلك.. ولا أعرف كيف مرّ كل هذا الوقــت بعــدك.. وفي بُعدك!!

....

أتقلّبُ دومًا بين معانٍ تصلح لوصفك.. وأخــرى خُلقــت لتكون لكِ وصفًا.. والأمر كله صار "أنتِ".. وفقط..

إزهاقًا لروح الذكرى في نفسي.. قررتُ وأد كل ما يستجد من أفكار تجاهك.. فاكتشفت أني أخون نفسي.. في نكرانك.

وجودك في حياتي لم يكن مشروعًا من وجهة نظرهم.. إنما أنا اليوم أشعر أن كل إحساس أشعره بعيدًا عنك هو خيانة..

خيانة لكِ.. وأنا لن أخون...

قد غدوت قبلتي.. وأصبحتِ كل الممكنات المــستحيلة.. وليتني ما اقترفتُ خطأ محاولة نسيانك ذات يوم..

وبرغم كل هذا.. سامحيني..

فمنتهى الذُّعر يتملّكني من أن يعرف أحد قصّتي..

منذ أن تركتُكِ وأنا أستهزئ بكل حب وكل علاقة وكـــل ألم وكل دموع..

أتشدّق بصوت عالٍ بأنه لا مكان في هذا العالم إلا للعقل..

لا حب.. لا حبيبة.. لا أنثى لها سُلطة على قلب رجـــل.. إلا مَن حمَق...

وكأني بعلوّ صوتي الحنجري على صوت ضـــميري الـــذي يؤنّبني على تركك في مهبّ الرجم أُكفّر عن ذنبي!!!

لا أدري ما مصيرك..

ومن حُمقي الزائد قطعتُ كل وسيلة أعرف بها عنكِ..

ولا أدري ما مصيري.. فأنا حاليًا مهتمٌّ جدًا بمواراة جـــسد معرفتي بكِ أعماق التراب..

مُنشغلٌ أكثر بمُداراة كل الأثر الذي يوصل أحـــدهم إلى أني عرفتُكِ..

أمّا أن يعرفوكِ هُم فهذا شأنك وشأنهم..

ما لي ومُتتبعيكِ؟

فإن ظهرتُ أنا مُدافعًا عنك سأشين نفسي.. ونفسي عندي غالية جدًّا.. لأني عرفتُها قبلك..

فاعذريني.. فإني أتنصّل منكِ رغم كل التزيف ورغم كـــل العذاب.. أنسلخُ من حبٍّ تربّص بي على حافة عمر ولّى..

أتنكّر لقلب هو الطهر بعينه..

قـــ ـــلـــ ـــبـــ ـــك...

إمضاء:

هذا الذي رفض أن يعترف أنه لا زال في الكـــون شـــيء اسمه.. أنتِ...